البنك الإسلامي في فكر الآباء المؤسسين

بحث مقدم إلى ندوة

"نحو ترشيد مسيرة البنوك الإسلامية"

رابطة الجامعات الإسلامية

جمهورية مصر العربية - القاهرة

إعداد

د. مُحَمَّد علي القري

جامعة الملك عبدالعزيز –جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه .. وبعد:

من هم الآباء المؤسسون؟

يقولون للنجاح ألف أب، والبنك الإسلامي تاريخه نجاح في نجاح فما أكثر آبائه. ولذلك فإن اختيار ثلة ممن كان لهم دور مؤثر ومساهمة ذات بال في تأسيس فكرة البنك الإسلامي والتنظير لها وإخراجها إلى النور قدر كبير من المخاطرة . ومع ذلك لا يحسن أن نجعل الخوف من الإخفاق مبرراً للتوقف عن العمل . على ذلك فإن من أذكرهم بوصف الآباء إنما هم من وسعهم علمي – وعلمي قاصر – ولا استبعد أن يكون بعض من فاتني معرفته والتنويه به له من الأهمية ما يفوق بعض من عديتهم من الآباء . فالعذر لهم والنقص مستولٍ على أعمال البشر والكمال متعذر .

والآباء المؤسسون طائفتين ، المؤسسون للمصرف الإسلامي من الناحية النظرية والمؤسسون له من الناحية التطبيقية . ومن العسير إن نشمل الجميع في ورقة واحدة، ولما كان قد نص على "الفكر" في الاستكتاب فكأنه خص المؤسسين من الناحية النظرية ولذلك فقد عنيت هذه الورقة بالطائفة الأولى، ومن كان من أفرادها ذا مساهمة نظرية وميدانية فقد اقتصرنا على النظرية فحسب . ولا يستنتج من هذا القول إن المساهمات النظرية خير وأبقى من المساهمات التطبيقية ، أو إن أثرها ودورها كان أقوى وأعمق وإنما مجال الحديث عن الطائفة الثانية بحث آخر .

منهج البحث:

الذين ساهموا في بناء المصرفية الإسلامية من الناحية النظرية كثيرون ربما يعدون بالعشرات منذ بدأ اهتمامهم بهذا الموضوع في الأربعينيات الميلادية من القرن الماضي، ولكن من استحق منهم عندنا لقب "الأب المؤسس" لا يزيد عن عدد أصابع اليد . لعلي أبدأ بحصر من أظن أنهم بحق الآباء المؤسسون للبنك الإسلامي من ناحية التنظير ، ثم استعرض أهم أفكارهم التي تمثل تصورهم

لهيكل المصرف الإسلامي وطريقة عمله ثم انتهي إلى النظر والمقارنة بين تلك الصورة (أو الصور) و واقع الحال فيما وصلت إليه المصرفية الإسلامية اليوم.

الآباء المؤسسون :

لا بد من تعريف للآباء المؤسسين يسهل علينا الاختيار بين عشرات الأسماء التي ترد في أدبيات الموضوع . يكون من الآباء المؤسسين من ناحية التنظير (في نظري) من تحقق فيه ما يلي :

١) من اختمرت في فؤاده فكرة المصرف الإسلامي.

٢) وكتب عنها بطريقة تفضح ما وصل إليه نظره من نضج من ناحية تصوره لهيكل المؤسسة المالية اللاربوية وطريقة عملها.

٣) وكانت أفكاره تلك قد نشرت قبل تأسيس أول مصرف إسلامي.

٤) وكان لها أثر ملموس على المصرفية الإسلامية. أما من كتب عن المصرفية الإسلامية بعد ذلك فليس في نظر الكاتب من الآباء

المؤسسين مع إن كتابته ربما كانت غاية في الأهمية والتأثير وللاعتراف بفضله والحديث عنه مجال آخر.

وقد أرخنا ولادة أول مصرف إسلامي سنة ١٩٧٥م ، ويتنافس على شرف الريادة مصرفان: البنك الإسلامي للتنمية وقد تأسس في تلك السنة وبنك دبي الإسلامي وقد تأسس أيضاً في ذات السنة. ويميل كثيرون إلى ترجيح حظ الثاني لأن الأول وان أسس في ذلك العام فانه لم يباشر العمل إلا بعد ذلك بثلاث سنين تقريباً .

يمكن القول عندئذٍ إن الآباء المؤسسين هم من كتب في الموضوع وقدم البديل الإسلامي للبنك الربوي بشكل واضح وتصور دقيق وكان لما كتب تأثير على بلورة فكرة المصرفي الإسلامي. ولا يتصور مثل ذلك إلا لمن كانت كتاباته قبل سنة ١٩٧٥م أو نحو ذلك التاريخ بأن كانت أفكاره أساساً لقيام المصرف الإسلامي أو ساهم في بلورة النموذج في أول وقت تأسيسه .

انحصر عندي الآباء المؤسسون بناء على ما سبق من ضابط في الأسماء التالية:

١. **محمد باقر الصدر:**

وكتابه ، البنك اللاربوي في الإسلام ، الذي صدر في أواخر الستينيات الميلادية وتضمن الإجابة عن السؤال العريض: كيف نؤسس بنكاً لا يعمل بالفائدة؟ فجمعت الإجابات لتكون مادة الكتاب المذكور .

٢. **محمد عبدالله العربي :**

فيما قدمه من بحث في المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية في مايو سنة ١٩٦٥م بعنوان: "المعاملات المصرفية المعاصرة ورأي الإسلام فيها" ، وظهر جلياً عنده هيكل مصرف لا يعمل بالربا يأخذ الأموال مضاربة من المدخرين ويمنحها للمستثمرين مضاربة .

٣. **أحمد عبدالعزيز النجار:**

وهو من الآباء المؤسسين على المستوي النظري وعلى المستوى التطبيقي وقد كان له تأثير مهم على بلورة فكرة المصرف الإسلامي وأفكاره منثورة

في مطبوعات كبيرة أهمها كتاب: بنوك بلا فوائد كإستراتيجية للتنمية ، الذي صدر في جدة ١٩٧٢م .

٤. **عيسى عبده :**

وجهاده طويل على كافة الأصعدة . وكانت بصمات فكره واضحة في مساهماته في تأسيس بعض المصارف الإسلامية التي نعرفها اليوم مثل بيت التمويل الكويتي وبنك قطر الإسلامي وفكره مجموع في كتابه: بنوك بلا فوائد ، الصادرة سنة ١٩٧٠م ، عن دار الفكر .

٥. **محمد نجاة الله صديقي :**

وقد بدأ الكتابة في الموضوع نحو سنة ١٩٥٨م ثم نشر كتابه Banking without Interest سنة ١٩٦٩م في الهند وباكستان وتضمن رؤية واضحة وناضجة لهيكل عمل مصرف إسلامي لا يعمل بالفوائد وفصل في طريقة عمله ومصادر أمواله واستخداماتها وعلاقته بالبنك المركزي والبنوك الأخرى ، واستفاد من خلفيته الاقتصادية في تناول المسائل بالطريقة الفنية المعتادة في الدراسات المصرفية .

٦. **محمد عزير:**

من الباكستان ، في كتابه المختصر An outline of Interest less Banking الذي نشره في كراتشي سنة ١٩٥٥م . وهو تفصيل لنموذج للمصرف الإسلامي نشره عزير سنة ١٩٥١م في مقال في مجلة اقتصادية ، ويمكن القول إن عزير هو أول من قدم نموذج "المضارب يضارب" كأساس لعمل المصرف الإسلامي وشرحه بطريقة تكشف فهماً دقيقاً لعمل البنوك وإحاطة بالغة بالطريقة التي يمكن أن يعمل من خلالها البديل الإسلامي.

٧. **سامي حسن حمود :**

وقد أكمل رسالته للدكتوراه ثم نشرها عام ١٩٧٥م وعنوانها تطوير الأعمال المصرفية ، ولكنه ضمنها من الأفكار التي كان لها في نظرنا تأثير بالغ على تطور المصرفية الإسلامية مما يجعله رحمه الله يتبوأ بحق مكانه في قائمة الآباء المؤسسين. وبخاصة فيما يتعلق بتطوير المرابحة للآمر بالشراء صيغة تمويل بديلة عن القرض .

نموذج المصرف الإسلامي في فكر الآباء المؤسسين :

إذا قلنا إن من سبق ذكرهم هم زبده الآباء المؤسسين فإن استقراء فكرهم يكشف أن المصرف الإسلامي – تلك المؤسسة التي تنهض بوظيفة الوساطة المالية بدون ربا – تتصف في نظرهم بما يلي :

١-ليست غاية المصرف الإسلامي استبدال الحلال بالحرام في معاملات البنوك فحسب ، مع أن هذا هدف محترم ولا غبار عليه وهو مطلب أساس ولكن الآباء المؤسسين تطلعوا إلى مصرف يُعنى بمقاصد الشريعة الإسلامية في المال عموماً فيأخذ على عاتقه وظيفة إعمار الأرض ، وتحقيق التوزيع الأمثل للثروة حتى لا تكون دولة بين الأغنياء ، ويتبنى أغراضاً ذات طابع اجتماعي عام . ولذلك جاءت كتاباتهم تشير إلى محاربة الفقر من خلال عمل المصرف الإسلامي، ودور القراض والمشاركة في تكافؤ الفرص وافساح المجال للنابهين من أبناء المسلمين للانخراط في الاستثمارات النافعة دون الحاجة إلى الرهون التي جعلت الثروة دولة بين لأغنياء في ظل نظام القروض الربوية.

٢-ان أساس عمل المصرف الإسلامي في نظر الآباء المؤسسين هو الشركة والمضاربة فهو يأخذ الأموال من الناس على أساس عقد القراض ثم يقدمها إلى من يعمل فيها على أساس الاشتراك في الربح والخسارة. وهذا اتجاه أجمع عليه الآباء المؤسسون حتى ان منهم من قال : حتى الحسابات الجارية تستحق جزءاً من الربح وان يشارك بها مباشرة في المشاريع الصناعية والزراعية [١] .

٣-من المحاذير الذي نبه إليها الآباء المؤسسون تورط المصرف الإسلامي في المداينات ولذلك حرصوا على ابعاد البنك الإسلامي عن تراكم الديون وحرصوا على ضرورة ان تحد قدرته على خلق الائتمان لأنه يصبح عندئذٍ في نظرهم بنكاً للأغنياء فالديون تحتاج إلى رهون والرهون في أيدي الأغنياء والديون إذا تراكمت سببت الدورات التجارة التي يذهب ضحيتها الفقراء .

٤-البنك الإسلامي عند الآباء المؤسسين جزء من نظام مصرفي إسلامي وهذا النظام متفرع عن حركة إصلاح اجتماعي واقتصادي تعيد إلى المجتمعات الإسلامية نظامها الإسلامي الذي اندثر بفعل المستعمر .

١ - عدا محمد باقر الصدر، الذي جاء نموذج المصرف عنده منافساً للبنك الربوي ويكاد يقتصر على الوساطة المالية .

٥-وللمصرف الإسلامي عند الآباء المؤسسين وظائف اجتماعية مستمدة من النظام الإسلامي فعليه ان يقوم بجمع الزكاة وتوزيعها في مصارفها ، وان يكون صندوقاً للرعاية الاجتماعية وان يعنى بالمناطق الريفية... إلخ .

المصرف الإسلامي اليوم :

هل لنا ان نقارن هذه الصورة النظرية للمصرف الإسلامي مع واقع المصرفية الإسلامية اليوم؟

ان نظرة فاحصة للواقع المعاصر للمصارف الإسلامية يكشف ان مسارها في التطور لم يكن على خطى فكر الآباء المؤسسين فمن أهم صفات المصرف الإسلامي اليوم انه :

١- مؤسسة مالية تسعى لتحقيق الربح لحملة أسهمها ، تكتسب وصف "الإسلامي" لأنها تقتصر في عملها على الحلال دون الحرام، وهي تستحق هذا الوصف بلا تردد . لكن لا يدخل ضمن تطلعاتها أن يكون لها دور شبيه بها تصوره الآباء المؤسسون مثل جمع الزكاة ،

أو أعمـار الأرض ، أو العمـل على تحقيـق التوزيـع العـادل للثروة والـدخل في المجتمـع فتلـك تركـت لسياسـات الحكومـات. واكتفـى المصرف الإسلامي في تفادي الوقوع في المحرمات المالية .

٢- عمل المصرف الإسلامي اليوم يكاد يعتمد اعتماداً تاماً على المداينات ، فهـو يقـدم التمويـل بالمرابحـة أو الاستصـناع (أو التـورق المصـرفي) وكل ذلك تتولد عنه الديون في دفاتر البنك. وقليلاً ما نرى المضاربة أو المشـاركة بل هي نـادرة جـداً . نعم لا تـزال المضـاربة الأسـاس الـذي يعتمد عليه البنك الإسلامي في حسابات الاستثمار (مصادر الأموال) لكنها تفقد أثرها المتوقع على هيكل المصرف الإسلامي عندما نعرف ان المضـاربة يقابلهـا في جانـب الخصـوم ديـون لا اشـتراك في ربح ولا خسـارة . فأصبحت مضـاربة "صـورية" لا حقيقـة لهـا إذ لا تنتهي إلى توليـد الأثـر المميز على توزيـع الـدخل والثروة في المجتمـع. ومـن جهـة أخرى فإن عـدداً من المصـارف اليـوم بدأ يتجـه إلى جعـل علاقتـه مع مصـادر الأمـوال قائمـة على أسـاس الـديون (فيمـا يسـمى التـورق في جانب الخصـوم) فـانتهى المصـرف الإسـلامي إلى صـورة تختلـف تمامـاً عما توقعه الآباء المؤسسـون.

مسارين للمصرفية الإسلامية:

ان الناظر في تطور المصرفية الإسلامية يلحظ أنها تطورت ضمن مسارين متوازيين . الأول هو مسار بناء قطاع مصرفي إسلامي وتأسيسه من الصفر والاعتماد في ذلك على فكر الآباء المؤسسين وهذا مسار البنوك الإسلامية التي نعرفها اليوم مثل بنك دبي الإسلامي ومصرف فيصل الإسلامي وبيت التمويل الكويتي ونحو ذلك . ولكن هناك مسار آخر هو ما يمكن أن نسميه مسار أسلمة البنوك التقليدية القائمة . وهذا لم يقم على فكرة تأسيس قطاع مصرفي إسلامي وإنما تحويل القطاع القائم وجره إلى نطاق الحلال . قد يبدو ان كلا المسارين جزء من مشروع واحد، والحق أنهما مشروعات مستقلان . والذي يسيطر على المصرفية الإسلامية اليوم هو المسار الثاني . هذا المسار له سماته المميزة التي ولدت هذا الاختلاف عن المسار الأول. الآباء المؤسسون الذين تحدثنا عنهم إنما هم مؤسسون للمسار الأول، ولم يتطرق واحد منهم للمسار الثاني ولم ينظر له أو يقترح الضوابط والقواعد .

وسنحاول أدناه بيان الفرق الأساسي بين المسارين لنصل إلى القول أن غلبة المسار الثاني في الوقت الحاضر لا تعني موت المسار الأول وأنهما سيلتقيان في نقطة واحدة في المستقبل .

تميز المسار الثاني بما يلي :

١. ان القائمين يمثلون تحالف مجموعة من المتخصصين الذين يغلب عليهم المهنية وهم براغماتيون قد حددوا هدفاً واضحاً ويسعون للوصول إليه ، ومجموعة من علماء الشريعة . ليس للأكاديميين عظيم دور في هذا المسار ولذلك يكاد بعدم التنظير .

٢. غرض المسار الثاني هو تحويل عمل البنوك القائمة من نطاق الحرام إلى نطاق الحلال . ولم يعط القائمون على هذا المسار اعتباراً يستحق الذكر للصورة الكلية، وإنما اكتفوا بالصورة الجزئية أو باستخدام لغة الفقه عنوا بالحلال والحرام دون النظر للمقاصد .

٣. انه مشروع تجاري، وليس في هذا خير ما دام ان استهداف الربح لا يكون على حساب الالتزام بالمباح والابتعاد عن المحرمات. لكن استهداف الربح

يضيق الخيارات المتاحة ولذلك يصعب تضمين عملية التحول أهدافاً تتعلق المقاصد . فعلى سبيل المثال لا يخفى ما جاءت به الشريعة من النهي عن كثرة المداينات وقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ من الدين. كما لا يخفى ما توصل إليه نظر الاقتصاديين فيما يتعلق بمخاطر الديون على الفرد وعلى المجتمع . ولكن المداينات وسيلة فعالة للمصارف. ولذلك كان الاعتبار هو التأكد من أن الديون تقع ضمن نطاق المباح. أما السؤال هل هي أكثر مما يجب فهذا اعتبار لا يحتمله المسار الثاني .

٤. ديدن أرباب المسار الثاني إيجاد البدائل لكل عمل يقوم به المصرف التقليدي أما المسار الأول فقدم حمل فكر الآباء المؤسسين، ولذلك نجد البنوك الإسلامية التي تأسيت في فترة الولادة للمصرفية الإسلامية قد نصت في وثائق تأسيسها بشكل واضح على الأغراض ذات النفع العام وعلى الأهداف المستمدة من مقاصد الشريعة الإسلامية ولم تكتف بمجرد الحلال والحرام. واعتنت بموضوع الزكاة والقرض الحسن ...إلخ . ومع ذلك فإن الغلبة في الوقت الحاضر إنما هي للمسار الثاني.